اترك الشاطئ!

تيموثي پاتون

١

الفصل الاول

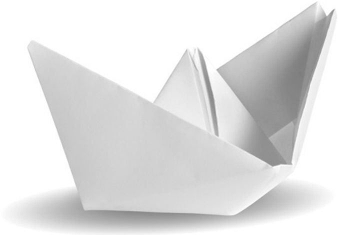

حان وقتُ مغادرة الشاطئ

تصوَّرْ للحظةٍ يسوعَ واقفًا على شاطئِ بحرِ الجليل. وبينما يَعِظُ الجموعَ، لاحظَ وُجودَ قاربَين فارغَين، وكان أحدُهما لبطرس. كان بطرسُ ينظِّف شباكَه بالقرب من الشاطئ، وبدا أنَّه مُثبَّطُ العزيمة لأنَّه لم يصطَدْ شيئًا طَوال الليل. ويتكرَّرُ هذا المشهدُ في كلِّ مكانٍ أقصدُه، إذ أقابلُ مؤمنين بالمسيح جالسين عند الشاطئ ومثبَّطي العزيمة، وقواربهم فارغة.

وعلى الأرجح أنَّ عددَ شعبِ الرّبّ الذين يجلسون على الشاطئ يفوقُ عددَ الذين يبحرون في أعماق البحر. وكلَّما أطالوا البقاءَ على الشاطئ، زادَ إحباطُهم أكثر. فيخفُّ فرحُهم، ويخمدُ شغفُهم نحو تحقيق أيِّ شيء يستحقُّ العناءَ في الحياة.

وعندما أنهى يسوعُ كلامَه إلى الجموع، صعدَ إلى قاربِ بطرسَ والتفتَ إلى صاحب القارب قائلاً: «**ابْعُدْ إِلَى الْعُمْقِ وَأَلْقُوا شِبَاكَكُمْ لِلصَّيْدِ**» (لوقا ٥: ٤).

لا يمكنك أن تُمضيَ كلَّ وقتك في تنظيف شِباكِك ، ولا يمكنك أن تبقى طوالَ حياتك على الشاطئ. حان وقتُ مغادرته. ما اسمُ شاطئك؟ أهو الإحباطُ؟ أم رثاءُ الذات؟ أم الاكتئابُ؟ أم الراحةُ؟ ها إنَّ يسوعَ مَوجودٌ في القارب ويناديك. ويحتاج الله إليك، ولا يمكن للقارب أن يغادرَ من دونك. ولنتذكَّرْ أنَّ الابتعادَ ٥ أمتار عن الشاطئ ليس كافيًا، ولا حتّى ٥٠ متراً. إذا أردتَ أن تجنيَ صيدًا وفيرًا، عليك أن تتوجَّه إلى العُمق.

ما العمقُ الذي يدعوك الله إليه؟ الوصولُ إلى السجون؟ أو خدمةُ المرضى؟ أو نَشرُ الإنجيل في المدارس؟

قال هدسون تايلر ذاتَ مرَّة: «لا أستطيعُ أن أحتملَ مشهدَ جماعةٍ من المؤمنين المسيحيِّين بالآلاف، يُصلُّون ويبتهجون بخلاصهم، بينما يَهلِكُ الملايينُ الضالّون.»

لا يمكننا البقاء على الشاطئ عندما نعرفُ الحقائق، وها قد حان الوقتُ لنتركَ الجموعَ وننطلقَ إلى العمق.

في عام ١٩٩٩، غادرتُ فرنسا وذهبتُ إلى العمق باتِّجاه كمبوديا. رافقتني مجموعةٌ من الأصدقاء المكرَّسين، وأمضَينا وقتَنا نرمي شباكَنا في العاصمة «بنوم بنه»، حيث يُرغَمُ آلافُ الأطفال يوميًّا على العمل في الشوارع لتحصيل لقمةِ العَيش.

ومع تعاقبِ السنوات في كمبوديا، مرَّت أوقاتٌ قذفت فيها الرياحُ القويَّة قاربي، وفي أحيانٍ أخرى كانت المياة تدخلُ القاربَ. لم يقلْ يسوع قَطُّ إنَّنا لن نواجهَ أيَّة عواصفَ أو تجاربَ في الطريق، لكنَّه قال إنَّه سيكون معنا في تلك الأوقات. لن تغرقَ؛ فيسوعُ معك في القارب.

قال يسوعُ لبطرسَ: «**أَلْقُوا شِبَاكَكُمْ لِلصَّيْدِ**». لكلٍّ منّا شِباكُه، أيِ المواهب التي باركنا الله بها. لا تُلقِ شبكتك على الرمال لأنَّك لن تصطادَ شيئًا، أو في أحسنِ الأحوال ستصطاد بعضَ السمك الميِّت والأصدافَ الفارغة. ألقِ شِباكَك نحو العمق، واستخدمْ مواهبَك حيث يتوافر سمك.

في عام ١٨٨٥، انطلق جون كيث فالكونِر، وهو في الـ١٩ من عمره، في رحلةٍ إرساليَّة إلى بلاد العرب. كتبَ الشابُّ قائلاً: «أنا لا أمتلك سوى شمعةٍ واحدةٍ لأُشعلَها، وأفضِّلُ إشعالَها في أرض تكتنفها ظلمةٌ حالكةٌ على أن أشعلَها في أرض تفيض بالنور». ليست شباكُنا للعَرض. يمكنُ للشبكة المعلَّقة على الحائط أن تذكِّرك أنت وأصدقاءَك بالأيَّام الجميلة التي أمضَيتموها في البحر، لكنّها بلا فائدة الآن.

من المحتمل أنَّ شبكاكَك معروضةٌ لمدَّة طويلة، لذا خُذها وألقِها في البحر. لا تَهدِرِ الإمكاناتِ والمواهبَ التي حَباكَ الله بها. وبينما أنت ذاهبٌ لخدمة الله، ثمّة وعدٌ من يسوع نفسه: «ستصطاد».

في مخيَّمِ اللاجئين في السُّودان ستصطادُ سمكًا، وفي حاوياتِ القمامة في بانكوك ستصطادُ سمكًا أيضًا، وفي مستشفى أفغانيٍّ مكتظٍّ، أو في وسطِ ألوفِ الطلبةِ المغتربين في إحدى الجامعات الأوروبيَّة، ستصطادُ أيضًا سمكًا.

سيزوِّدك الربُّ بعمَّالٍ آخرين لمساعدتك على سَحْبِ الشبكة، وسينضمُّ إليك آخرون من أعضاء جسدِ المسيح لجمع الصَّيد. جاء صيَّادون آخرون إلى قارب بطرس، «**وَمَلأُوا السَّفِينَتَيْنِ حَتَّى أَخَذَتَا فِي الْغَرَقِ**» (لوقا ٥: ٧).

عندما تقرِّرُ الاستجابةَ لدعوة الله لكَ إلى الذهاب حول العالم وإحداثِ الفرق، لن يكونَ الجميعُ سعيدًا بذلك. وعندما تتركُ الجموع، قد تُسبِّبُ الاستياءَ للبعض.

في عطلةٍ في جزر الباهاما، لاحظ رجلٌ تجمُّعًا كبيرًا للناس في نهاية الميناء. وبينما

هو يقتربُ أكثرَ من الحشد، رأى رجلاً يستعدُّ للذهاب في رحلةٍ بمفرده حول العالم بواسطة قارب صغير. وكان كلُّ مَن يعاين المشهدَ يُخبرُ المسافرَ بما قد يواجهه من مشكلات. وحالما وصل الرجلُ إلى منطقة التجمُّع، شعرَ بإلحاحٍ شديدٍ لأن يقدِّم إلى المسافر نوعًا من التشجيع. وإذ كان القاربُ منطلقًا إلى عُرضِ البحر، بدأ يقفز بحماسة شديدة على الميناء ويصرخ: «أحسنتَ صُنعًا! يمكنك النجاحُ في رحلتك هذه! نحن فخورون بك!» فيما تنطلقُ إلى العمق ستسمعُ الصوت الذي يقول: «أحسنتَ صُنعًا! يمكنك النجاحُ في رحلتك هذه! نحن فخورون بك!»

قال ويليام ج. ت شاد: «تكون السفينةُ آمنةً عندما تكون راسيةً على الميناء، لكنّها لم تُصنَع من أجل ذلك.»

مَن سيُلقي بشباكه على ١٠,٨٠٧,٠٠٠ بشتونيٍّ في أفغانستان حيث يوجد ٠،٠١٪ فقط ممَّن يُعرَفون بأنّهم أتباعٌ للسيِّد المسيح؟ ومَن سيذهبُ إلى أعماق التشاد، حيث ١,٢٥٨,٠٠٠ من الشعب التشاديّ يغشاهم ظلامٌ دامِس؟

كثيرًا ما أفكِّر في ماثا، تلك السيِّدة الرائعة التي تعرّفتُ بها في تشرين الأوَّل/ أكتوبر عام ٢٠١٣ في مدينة شيانغ ماي في تايلاند. حصل اللقاءُ في منزلٍ لاستضافة المرسَلين، وقد استمعتُ إلى قصَّتها بينما كنَّا نتناوَلُ وجبةً من الطعام.

وُلِدت ماثا في الولايات المتَّحدة. وفي السنة الحاديةَ عشرةَ سلَّمتْ حياتَها للمسيح. كانت تعاني صداعًا حادًّا، فزارتْ أحدَ الأطبَّاء الذي سرعان ما شخَّصَ ورمًا خبيثًا في دماغ هذه الشابّة الصغيرة، وكانت تبلغُ حينها اثنتي عشرة سنة فقط. خضعَتْ لعمليَّة جراحيَّة، ولكنَّها باءت بالفشل. وقبل أسبوعٍ من عيد ميلادها الثالث عشر، استيقظت ماثا وكانت قد فقدت بصرها. وفي السنة السادسةَ عشرةَ، حاولتِ الانتحارَ من خلال تناوُل جرعةٍ من أحد المسكِّنات التي وصفها الطبيب، والتي تكفي شهرًا كاملاً . وبعد أربع وعشرين ساعة، استيقظت وأعلنَتْ بصوتٍ مسموع:

«أشكرُ الله لأنِّي ما زلتُ حيَّة. والآن أنا أسلِّمك يا ربُّ كلَّ ما لي». ثمَّ قالت لي: «وبعدها شعرتُ بمجد الله من حولي، وكان الله بجانبي دائمًا. عندما كنتُ أبكي، كنتُ أشعرُ أنّه يبكي معي.»

بعد ذلك دفعها شغفُها تُجاهَ الثقافات الأجنبيّة إلى اتّخاذ قرارِ السفر لتكونَ مرسَلةً، على الرغم من الإعاقة التي تعانيها. وبعد أن حازت درجةَ الماجستير في إحدى كلِّيَّات اللاهوت، قدّمتْ طلبًا إلى وكالةِ إرساليَّاتٍ لخدمة الأطفال في شوارع المكسيك. ولكنْ عندما أدركَ القادة أنَّها ضريرة، رُفض طلبها. لكنَّها لم تفقدِ الأمل، فأرسلت طلبًا آخرَ هذه المرَّة إلى وكالةٍ تخدِم في كولومبيا، ولكن أُوصِدَ الباب في وجهها مرّة أخرى. وبعد أن رُفِضَ طلبُها مرَّتَين، راحت تلك الفتاةُ البالغةُ من العمر ٢٣ سنة تتساءل ما إذا كان من الخطأ أن تتقدَّم بطلبٍ آخر إلى إرساليَّات تعملُ ما وراء البحار، لكنَّ الله همسَ في قلبها قائلاً: "ماثا، أنا بالحقيقة دعوتُكِ. لا يهمُّ ما يخبرك به الناس". تمالكَتْ نفسها وتقدَّمتْ بطلبٍ آخرَ لخدمة Youth With A Mission (أي «شباب يحملون رسالة») في البرازيل، وقُبِلَ طلبُها هناك!

في عام ١٩٩٤، ذهبتْ في إرساليَّة قصيرةِ الأجل للخدمة مع الأطفال في شوارع شمال البرازيل. وبعد أن عادتْ إلى الولايات المتَّحدة، توجّهت في أحد الأيَّام إلى كنيستها المحلِّيَّة لتستمعَ إلى مرسَلٍ يتحدَّث عن خدمته في منغوليا. وهي في طريقها إلى الكنيسة، تذكرُ أنَّها قالت لنفسها: «أنا على يقينٍ بأمرٍ واحد؛ لن أذهبَ إلى منغوليا، ولن أعملَ فيها أبدًا». ولكن قبل نهاية الإجتماع، كان الله قد غيَّر قلبَها، وكانت مقتنعةً أنَّ منغوليا هي المكان الذي يريد الربُّ منها أن تخدمَ فيه.

وقبل مدَّةٍ قصيرة من مغادرة ماثا الولايات المتَّحدة والاتجاه إلى أولان باتور، عاصمة منغوليا، تلقَّت رؤيا استطاعَتْ فيها أن تميِّز العديدَ من المؤمنين المنغوليِّين يركَبون أحصنة، وقال لها الله في هذه الرؤيا: «أنا دعوتُكِ ليس للخدمة في وسط

الأطفال المتروكين في الشوارع فحسب، بل أفوِّضُكِ أيضًا لتُنشِئي خدَّامًا من منغوليا يقومون على خدمتي.»

وفي سنة ١٩٩٧ غادرت ماثا، ضريرةً ووحيدةً، لخَوْض مغامرة إيمانٍ جديدةٍ تمامًا عليها. أكثرُ من خمسةِ آلافِ طفلٍ وطفلةٍ يعيشون في الشوارع في أولان باتور، حيث تصل درجةُ الحرارة في الشتاء إلى نحو ثلاثين تحت الصفر وحيث يموت العديدُ من الأطفال من شدَّة الصقيع. تعلّمتْ ماثا اللّغة المنغوليَّة، وقدّمتْ كلَّ وقتها لأولئك المنبوذين الصّغار. وفي الشتاء، اعتنى المركَزُ الذي كانت تخدم فيه بمئتَي يتيم.

سألتُ ماثا ما إذا نشأ شيءٌ من تلك الرؤيا التي تلقّتها عن مؤمنين محلِّيِّين ينطلقون في الخدمة، فأجابت بوجهٍ مشرقٍ: «أتعلَمُ يا تيموثي؟ إنَّ عددَ المرسلين الذين تطلقهم منغوليا نسبةً إلى عدد مؤمنيها، يفوقُ الأعدادَ التي ترسلها أيَّةُ دولةٍ أخرى في العالم. هناك أخٌ منغوليٌّ ضريرٌ مثلي، وقد سَعِدتُ بأن أطلقَه مرسَلاً لشعبه. والآن هو في قلب صحراء غوبي يزرع الكنائسَ في وسط البدو!»

قبل عيد الميلاد بفترةٍ قصيرة قابلتُ ماثا، وذهبنا إلى سوق شيانغ ماي حيث اشترَت هدايا للعائلة والأصدقاء، وأمضَينا وقتًا ممتعًا هناك. وفي بداية عام ٢٠١٣، انتقلت ماثا إلى خدمةٍ جديدة كلِّيًّا: نقلُ محبَّةِ يسوعَ إلى الشابَّات التايلانديَّات العاملات في الدعارة القسريَّة. يصل عددهنَّ تقريبًا إلى ٥٠٠,٠٠٠ عبدة في تايلاند اليوم. وفي وسطِ هذه الحشود من النساء المحطَّماتِ والأطفالِ المساكين، ثمّة بطلةٌ أميركيَّةٌ ضريرة، لم تسمحْ لإعاقتها القويِّة أن تحدِّدَ خدمتَها ومستقبلها.

كانت آخرُ مرَّةٍ رأيتُ فيها ماثا في موقفِ سيَّاراتِ بيت الضيافة المسيحيّ الذي ذكرتُه. جاءت سيَّارةُ أجرة لاصطحابها إلى المطار، حيث كان عليها أن تُسافِر إلى بانكوك بمفردها، مع حقيبتها وعصاها البيضاء. عندما تتكلَّم في كنائس أميركا،

مواجِهَةً جموعًا لا تراهم، تُلقي عادةً تحدِّيًا أمامَ الجميع: «إخوَتي وأخواتي، إذا كنتُ أستطيعُ أن أفعلَ ما أفعلُه، فاعلموا أنّه بوسعكم أنتم أيضًا أن تفعلوه!»

كتبَ مارك توين: «بعد عشرين سنة من الآن، ستندمُ أكثر على الأشياء التي لم تفعلها. لذا ألقِ حبلَ الشراع وأبحِرْ بعيدًا عن الميناء الآمن. استغلَّ الريح لدفع أشرعتك، واستكشِفْ واحلَمْ واكتشِفْ.»